المنهج التاريخي

1) نشأة الوعي التاريخي في أروبا خلال القرن الثامن عشر:

يرتبط ظهور المنهج التاريخي في النقد بظهور الوعي التاريخي الذي كان مرتبطا بتصاعد الوعي القومي في أروبا بداية من القرن الثامن عشر، وموجّها لعلوم ومعارف مختلفة أهمها الفلسفة وعلم اللغة والبيولوجيا:

ففي **مجال الدراسات اللغوية** ظهرت بداية من القرن الثامن عشر نزعة نحو الاهتمام بتاريخ اللغة من خلال الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة التي احتضنتها الفيلولوجيا بتوجهها نحو دراسة النصوص الدينية القديمة وتحقيقها ثم الانتقال من ذلك إلى تحقيق النصوص الأدبية. فكان من نتائج ذلك إحياء التراث الأدبي الغربي والعناية بتحقيقه وتنقيحه.

وتجلى هذا الوعي في **مجال العلوم** من خلال **نظرية النشوء والارتقاء** لدارون التي تقوم على أساس التطور الخطي للحياة، والخضوع لقانون طبيعي حتمي يفرض هذا التطور، يتمثل في البقاء للأقوى.

وفي مجال **الفلسفة** مثّل **المذهب الرومانسي** نموذجا للوعي التاريخي بثورته على جمود الكلاسية من منطلق إيمانه بتطور حركة التاريخ والفكر الإنساني وسيرها في شكل خطي بدل العودة بها إلى الماضي. وانعكس ذلك على نظرته إلى طبيعة الإنتاج الفكري والأدبي والفني الذي لا يمكن فهمه إلا في تاريخيته، أي في ارتباطه بحركة التاريخ وتطوره. ولم يكن غريبا أن يكون الفيلولوجي الألماني فريديريك فون شليجل، وهو رائد المدرسة التاريخية في الأدب، والأديبة الفرنسية مدام دوستايل في طليعة المفكرين الداعين إلى الرومانسية في مجال الأدب، بما تتضمنه من وعي بحركة التاريخ وتمرد على قوانين العصر الكلاسي، متأثريْن في ذلك بلا شك بالمنهج التاريخي والمقارن في دراسة اللغات الإنسانية، وهو المنهج الذي بسط هيمنته على مجال الدراسات اللغوية في ألمانيا خاصة خلال القرن التاسع عشر، إضافة إلى التوجه العام للرومانسية ونظرتها لحركة التاريخ وثورتها على قواعد الكلاسية.

وكان لارتباط الرومانسية بالثورات الاجتماعية وبالتمرد على كل ما يرتبط بالوجود الكلاسي من سلطة وفكر وأدب... أثر كبير على ربط الأدب بالمجتمع. وهو ما يفسر لنا ارتباط كاتب رومانسي كبير كفيكتور هوجو في أدبه ارتباطا وثيقا بالثورة الفرنسية.

وإضافة إلى الوعي التاريخي الذي كان مهيمنا على مجالات المعرفة في القرن التاسع عشر، كان **للفلسفة الوضعية** مع أوغست كونت أثر أيضا في التوجه نحو الدراسة العلمية للأدب، لثورتها على الميتافيزيقا وإيمانها بالتفسير العلمي للظواهر. وهو موقف عززه المنهج التجريبي في العلوم الدقيقة كالبيولوجيا والفيزياء، فصارت دراسة الأدب تتجه نحو تفسير نشأته تفسيرا علميا في ظل عوامل موضوعية تجعل شكله حتميا.

2) الدراسة الأدبية قبل ظهور المنهج التاريخي:

كان الاتجاه السائد للدراسات الأدبية قبل ما يسمى بالعصر الرومانسي قائما على التعريف بالكتّاب وأعمالهم، مع ذكر نماذج من أدبهم، فلم تكن تستند إلى منهج نقدي ذي مبادئ واضحة تقوم على تحليل الأعمال الأدبية وتفسيرها. وقد أوضح ذلك الكاتبُ ديفيد بيركينز في مقال له حول "التاريخ الأدبي والمذهب التاريخي" ضمن موسوعة كمبردج في النقد الأدبي في قوله: "كانت تلك الأعمال تقوم بتعديد كل ما هو معروف عن كل مؤلف في المجالات المختلفة للأدب الراقي والتاريخ والفلسفة وفقه اللغة الكلاسيكي واللاهوت وما أشبه ذلك، وبترتيب المؤلفين في مجموعات حسب التعاقب الزمني (...) ويكاد الكتاب العظيم لتوماس وارتون تاريخ الشعر الإنجليزي (1774-81) لا يتجاوز كثيرا هذا الشكل. فأغلبه سرد للتواريخ وعناوين الكتب" (موسوعة كمبردج، ج5، ص550).

وكان أول كتاب يرصد تطور الأدب في علاقته بالمجتمع هو كتاب فريديريك شليجل عن تاريخ الشعر اليوناني والروماني سنة 1798. وبذلك فقد بدأ الرومانسيون في ألمانيا وغيرها من البلدان، كإنجلترا وفرنسا، في وضع مبادئ المنهج التاريخي وأسسه، فحدد الشاعر الإنجليزي شيللي مفهوم العصر الأدبي بالتشابه غير المقصود بين أدباء فترة معينة نتيجة لخضوعهم لعوامل مشتركة: "لا بد من وجود تشابه يجمع كتّاب عصر محدد، لا يكون تشابها مقصودا بإرادتهم. فلا يمكن لهم الهروب من الخضوع للتأثيرات المشتركة التي تنبع من مجموعة لا نهائية من ظروف ذلك الزمن الذي يعيشون فيه" (موسوعة كمبردج، ج5، ص553).

وهكذا وضع الرومانسيون أهم المبادئ التي قام عليها المنهج التاريخي في دراسة الأدب، والمتمثلة في التطور الخطي للأدب وارتباطه بالعصر ارتباطا حتميا، وتفسير نشأته تفسيرا سببيا، حيث تبلور عند بعضهم، أمثال مدام دوستايل وكولريدج وشليجل، مفهوم الانعكاس، فصاروا ينظرون إلى الأدب على أنه تعبير مباشر عن العصر. ومن ثم أصبحت الغاية من دراسة الأدب لا تنفصل عن السعي إلى معرفة العصر وخصائصه، بهدف الوصول إلى الغاية الأسمى وهي معرفة التطور البشري الذي يعد الأدب جزءا منه. يضاف إلى ذلك أن التاريخ نفسه وروح العصر يساعدان بشكل كبير في فهم الأعمال الأدبية. وهو ما يعد تطورا كبيرا في منهج تأريخ الأدب مقارنة مع ما كان سائدا خلال العصر الكلاسي.

ومع ذلك فإن التوجه العام للرومانسية في انحيازها للعاطفة على حساب العقل وقوانينه، واهتمامها بالجوانب الجمالية في العمل الأدبي وبالموهبة الفردية وبالبعد التخييلي للأدب كان يمنعها من اعتماد منهج علمي في النقد بالشكل الذي تبلور عليه بعد ذلك مع نقاد تاريخيين بارزين أمثال فرديناند برونتيير وغوستاف لانسون وسانت بيف وهيبوليت تين.

3) مبادئ المنهج التاريخي ورواده:

كان لهيمنة روح العلم الحديث ومنهجه التجريبي، وتراجع المذهب الرومانسي أثر بالغ في التحول الذي شهده النقد الأدبي بعد الفترة الكلاسية مع طائفة من النقاد الفرنسيين الذين يعدون مؤسسين حقيقيين للمنهج التاريخي في النقد الأدبي، وهم: فرديناند برونتيير وسانت بيف وهيبوليت تين.

فقد أخذ هؤلاء المبادئ التي أرساها الرومانسيون في تأريخهم للأدب وأضافوا إليها ما ينسجم مع روح العلم الحديث، ليؤسسوا منهجا تاريخيا علميا في النقد يعتمد على تفسير نشأة الأعمال الأدبية في ظل عوامل التاريخ والبيئة والعصر، من منطلق كونه نتاجا حتميا لهاته العوامل. وبذلك كان المنهج التاريخي أول المناهج النقدية الحديثة.

ويعد فرديناند برونتيير Ferdinand Brunetière أول ناقد يدعو إلى الاستفادة من نظرية النشوء والارتقاء لدارون وتطبيقها على دراسة الأدب، حيث رأى أن حتمية التطور تؤدي إلى تحول تدريجي في الأنواع الأدبية بما يؤدي إلى

أفولها وإلى ظهور أنواع جديدة تحمل داخلها خصائص الأنواع السابقة، وألف في تفسير هذه الفكرة مجلدات تحمل عنوان "تطور أنواع الأدب" بيّن فيها أن النوع الأدبي يولد بسيطا ثم يتطور ويكتمل ليتحلل ويفسح المجال أمام نوع آخر.

أما سانت بيف Sainte-Beuve فقد عمل على تجاوز منهج مدام دوستايل التي كانت تدرس الأدب في دلالته المباشرة على واقعه، فجعل يدرسه في دلالته على مؤلفه. ولهذا كان يهتم بكل ما يتصل بالأديب من بيئة وثقافة وأسرة وعلاقات اجتماعية وصفات جسمية وأحوال نفسية... إيمانا منه بأن الأدب انعكاس لشخصية الأديب، ومطلقا عبارته الشهيرة: "كما تكون الشجرة يكون ثمرها". وكان من نتائج هذا المنهج ربطه بين الإنتاج الأدبي والجنس البشري، فحكم بتفوق أدب الآريين (الأروبيين) على الساميين بسبب تفوق الجنس الآري على غيره من الأجناس.

وكان هيبوليت تين Hippolyte Adolphe Taine تلميذا لسانت بيف ومتأثرا بأفكاره، لكنه كان أكثر ميلا إلى قوانين العلم، فسعى إلى تأسيس منهج وضعي في النقد ينطلق من مبدإ الحتمية الذي يَعُد الأدب نتاجا حتميا لثلاثة عوامل هي: البيئة والعصر والجنس، ولا مكان فيه للموهبة الفردية. وقد استفاد تين في قوله بمفهوم الحتمية من نظرية التطور لدارون ومن مفهوم الحتمية التاريخية في الفكر الماركسي. وهذا جعله يتجاوز دراسة حياة الأديب إلى دراسة بيئته (كالمناخ والجغرافيا) وعصره (الظروف السياسية والاجتماعية) وجنسه البشري، لتفسير ما يجعل الأدب حتميا.

وفي بداية القرن العشرين تطور هذا المنهج مع غوستاف لانسون Gustave Lanson الذي يعدّ أهم نقاد هذا المنهج وأكثر النقاد التاريخيين تأثيرا في النقد العربي الحديث. وقد فصل مبادئ منهجه في مقالته المطولة "منهج البحث في الأدب" التي حدد فيها منهجه بأنه "المنهج التاريخي" الذي يلتقي مع التاريخ العام في أن مادتهما معا هي الماضي، لكن تاريخ الأدب يمتاز بأن موضوعه ليس هو الماضي فقط بل الحاضر أيضا، بسبب تأثير عصر أدبي في عصر آخر.

ودعا لانسون إلى دراسة الأدب في دلالته على العصر في مختلف جوانبه: "نحن ندرس تاريخ النفس الإنسانية والحضارة القومية في مظاهرها الأدبية (...) ونحن إنما نحاول دائما أن نصل إلى حركة الأفكار والحياة خلال الأسلوب" (منهج البحث في تاريخ الأدب، لانسون، ضمن كتاب: النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، ص399). وهذا يعني النظر إلى الأدب بوصفه "وثيقة تاريخية"، لكنها تمتاز عن بقية وثائق التاريخ بما تثيره فينا من إحساس فني وجمالي.

ويقوم الطابع العلمي للمنهج الذي يقترحه لانسون على الأخذ بما سماه "روح العلم"، منتقدا بذلك ما قام به برونتيير من تطبيق صارم لنظرية الطور على الأدب. وهكذا حدد لانسون مجموعة من الإجراءات التي سماها "المنهج العملي" في دراسة النصوص الأدبية. وهي إجراءات تسعى إلى تحقيق علمية النقد وموضوعيته وتخليصه مما سماه "النقد التأثري" و"النقد التقريري" (لانسون: 396)، كما تسعى إلى الكشف عن علاقة الأدب بمحيطه التاريخي والاجتماعي، ومن هذه الإجراءات:

- التحقق من نسبة النصوص إلى أصحابها، ومن صحتها وخلوها من التشويه
- دراسة تاريخ النص وما طرأ على طبعاته من تغيير
- دراسة القيمة المعنوية والفنية للنص الأدبي بوصفه وثيقة تاريخية وفنية
- دراسة حياة الأديب والعوامل المؤثرة فيها لفهم النص الأدبي
- دراسة تأثير النص في الواقع

يقول في هذا السياق: "إن معرفة نص ما هي أولا المعرفة بوجوده (...) ثم هي أن نتساءل بالنسبة لذلك النص عدة أسئلة (...):

1. هل نسبة النص صحيحة؟ وإذا لم تكن صحيحة، فهل النص منسوب خطأ إلى غير صاحبه أم أنه نص منتحَل بأكمله؟

2. هل النص نقي كامل خال من التغيير أو التشويه أو النقص؟ (...)
3. ما هو تاريخ النص؟ (...)
4. كيف تغير النص منذ الطبعة الأولى إلى الطبعة الأخيرة التي طبعها المؤلف؟
5. كيف تكوّن النص من أول تسويدة إلى الطبعة الأولى؟ (...)
6. ثم نقيّم[1] المعنى الحرفي للنص (...)
7. وبعد ذلك نقيّم المعنى الأدبي للنص، أي نحدد ما فيه من قيم عقلية وعاطفية وفنية (...)
8. كيف تكوّن المؤلف الأدبي؟ أي نوع من الأمزجة استجاب لأي نوع من الملابسات فخلقه؟ حياة المؤلف هي التي تنبئنا عن ذلك. ثم من أي المواد تكوّن؟ هذا ما يخبرنا به البحث في المصادر (...)
9. أي نجاح لاقى المؤلَّف؟ وأي تأثير كان له؟ (...)

هذه هي العمليات الأساسية التي تؤدي بنا إلى المعرفة الدقيقة الكاملة بالكتاب (...) ثم نطبق تلك العمليات على الكتب الأخرى للمؤلف وعلى كتب المؤلفين الآخرين، ونجمع الكتب تبعا لما بينها من وشائج في الموضوع وفي الصياغة. وبفضل تسلسل الصياغات نضع تاريخ الفنون الأدبية، وبتسلسل الأفكار والإحساسات نضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية[2]. وبالمشاركة في بعض الألوان وبعض المناحي الفنية المشتركة بين الكتب التي من نوع أدبي واحد ومن نفوس مختلفة نضع تاريخ عصور الذوق" (لانسون: 411).

هكذا يكون لانسون قد طور المنهج التاريخي ووضع له إجراءات دقيقة تأخذ "بروح العلم"، وتنظر إلى جانبه التاريخي والتكويني دون أن تغفل جانبه الفني، مع جعل هذا الأخير معبّرا عن الذوق الفني السائد في عصره.

ومن ثم يكون هذا المنهج قائما على جملة من المرتكزات والمبادئ المشتركة بين أبرز رواده، وهي:

- دراسة الأدب بوصفه وثيقة تاريخية وشخصية تعبر عن شخصية الأديب وعصره
- التزام التفسير العلمي لنشأة الأدب في ظل مبدأ الحتمية الذي يقضي بكونه نتاجا حتميا لظروف إنتاجه.
- الطابع التفسيري للنقد، من حيث كونه يسعى إلى تفسير نشأة الأنواع والتيارات الأدبية وتطورها في ظل ظروف البيئة والعصر والجنس والشخصية.
- الاهتمام بمضمون العمل الأدبي، بالنظر إلى كونه وثيقة تاريخية، مع دعوة لانسون إلى الاهتمام بجوانبه الفنية أيضا.

وهذه المبادئ تجعل مجالات الدراسة التاريخية للأدب متعددة، تشمل ما يلي:

- **دراسة النص**: عن طريق الاهتمام بدراسة النص الأدبي في ضوء الاتجاه الذي يمثله، وفي علاقته بالعصر، لكون النص انعكاسا للعصر وظروفه. وتشمل هذه الدراسة أيضا تحقيق النص والاهتمام بصحته وتاريخ إنتاجه ونسبته إلى مؤلفه والعصر الذي ينتمي إليه.
- **دراسة الأشكال**: تؤدي دراسة النصوص المفردة إلى الاهتمام بدراسة الأشكال الأدبية وتطورها في علاقتها بالعوامل المساهمة في ذلك. وهو ما ينتج عنه كتابة تاريخ لتطور الأشكال والأنواع الأدبية.
- **دراسة المدرسة الأدبية**: يؤدي تأريخ الأشكال الأدبية إلى معرفة تطور المدارس والاتجاهات الأدبية من عصر إلى عصر، والوقوف على مساهمتها في تطور تاريخ الأدب.
- **دراسة أدب العصر**: ينتج عن كتابة تاريخ للمدارس والاتجاهات معرفة الإنتاج الأدبي لكل عصر، ومساهمة العوامل الخارجية في تطوره.

[1] الصواب: نقوّم
[2] الصواب: الخُلُقية

هذه المجالات والمبادئ التي تقوم عليها تجعل للمنهج التاريخي أهمية كبيرة تتمثل في كونه أول منهج نقدي حديث يعتمد إجراءات دقيقة في دراسة الأدب، وأول منهج يبحث في مسألة الأنواع الأدبية وتطورها. وهو ما جعله منهجا صالحا جدا في مجال تدريس الأدب. ومع ذلك فإنه لا بد من الإشارة إلى أبرز الانتقادات التي وجهت إليه، والتي تتلخص في نقطتين هما:

- **إهمال النص**: فالمنهج التاريخي يهتم بالبحث في التاريخ والبيئة وحياة الأديب أكثر من اهتمامه بالنص الأدبي ذاته. وحتى عندما يهتم بالنص فإنه ينصرف إلى المضمون أكثر من انصرافه لأسلوب التعبير. وينتج عن ذلك أن عمل الناقد التاريخي لا يتجاوز تفسير نشأة الأعمال الأدبية ودلالة مضامينها على العصر، إذ يفتقد هذا المنهج إلى الأدوات التي تمكنه من تحليل النص والكشف عن جوانبه الفنية والجمالية، والوقوف على قيمته الإبداعية.
- **مبدأ الحتمية**: يربط المنهج التاريخي بين حياة الأدب وحياة العصر ربطا حتميا يجعل ازدهار السياسة وانحطاطها متحكميْن في ازدهار الأدب وانحطاطه، كما يهمل عاملا أساسا متحكما في الإبداع الأدبي يتمثل في الموهبة الفردية التي تجعل فروقا واضحة في درجة الإبداع بين أدباء ينتمون إلى عصر واحد ويخضعون لمؤثرات متشابهة.

4) المنهج التاريخي في النقد العربي:

ساهم الاستشراق بحظ وافر في تلقي النقد العربي الحديث للمنهج التاريخي، من خلال العمل التأريخي الذي قام به عدد من المستشرقين للأدب العربي، وهو ما كان يُعد منهجا جديدا في دراسة هذا الأدب وتدريسه. وقد أدى ذلك إلى تطوير الممارسة النقدية العربية وإخراجها من طابعها التقليدي بداية من السنوات الأولى من القرن العشرين. ويمكن أن نشير في هذا الإطار إلى المحاضرات التي ألقاها كارلو نالينو بالجامعة المصرية سنتي 1910 و1911 وأصدرها ضمن كتاب "تاريخ الآداب العربية". وقد اعتمد فيها على تأثير البيئة على تطور الأنواع الأدبية ضمن ثلاثة عصور هي: العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والعصر الأموي، كما يمكن أن نشير إلى كتاب كارل بروكلمان "تاريخ الأدب العربي" الذي ظهر في طبعته الأولى سنة 1900، واعتمد فيه أيضا على تأثير الحياة السياسية والثقافية في تطور الأدب وانحطاطه من الجاهلية إلى العصر الحديث. ومما قاله في ذلك: "لم يكد الازدهار الحقيقي للأدب العربي يستمر ثلاثة قرون. ففي أواسط القرن العاشر الميلادي لقيت الثروة المادية والحياة العقلية اضمحلالا سريع التدهور مع ذهاب الوحدة السياسية للدولة العباسية. نعم، حصل ازدهار متأخر دام ثلاثة قرون بعد ذلك، ولكن عواصف المغول في القرن الثالث عشر حطمت ذلك الازدهار تحطيما أخيرا" (بروكلمان: ط4، ج1، ص37).

وكان من الآثار التي تركتها مثل هذه الدراسات الاستشراقية ظهور النزعة التأريخية لدى النقاد العرب في دراستهم للأدب العربي. وهي نزعة تتبنى كلها مبدأ تأثير البيئة والتاريخ والمجتمع في الإنتاج الأدبي، حيث كانت بدايتها مع جرجي زيدان في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية" الذي ألف بعض فصوله أواخر القرن التاسع عشر، وصدر في صيغته النهائية سنة 1911، ووصفه بأنه أول كتاب عربي في تأريخ الأدب العربي، وحدد فيه منهجه على أنه "منهج تاريخي" يستفيد من منهج المستشرقين في تأريخ آدابهم وآداب اللغة العربية، ويقوم على دراسة تأثير التحولات السياسية في تطور الأدب العربي (زيدان: ج1، ص8).

وكان عمل جرجي زيدان بداية لظهور مؤلفات عديدة في تأريخ الأدب العربي أبرزها: "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعي، و"تاريخ الأدب العربي" لحنا الفاخوري، و"تاريخ الأدب العربي" لشوقي ضيف. وهي مؤلفات

ذات غاية تعليمية بالأساس، تتتبع تطور الأدب العربي في عصوره المختلفة، رابطة هذا التطور بتحول الأوضاع السياسية. وهو ما جعل الناقد شكري فيصل يسمي هذا المنهج بالمنهج المدرسي.

غير أن أثر المنهج التاريخي على النقد العربي لم يقتصر على المؤلفات التي تؤرخ للأدب العربي، بل شمل أيضا الدراسات النقدية التي تنطلق من حتمية تأثير البيئة والتاريخ على الإنتاج الأدبي. وقد كان طه حسين رائدا لهذا المنهج في النقد العربي، فجسد ذلك في مقالات وكتب مختلفة أهمها: "حديث الأربعاء" و"تجديد ذكرى أبي العلاء"، حيث درس في الكتاب الأول أثر البيئة العربية القديمة على تطور الأدب العربي، وخصص كتابه الثاني لدراسة شخصية أبي العلاء المعري وأدبه، فنظر فيه إلى الأدب على أنه تعبير صادق عن شخصية صاحبه وعن بيئته، مشبها الأدب بالمرآة التي تعكس صاحبها ومجتمعه، ومستدلا على ذلك بنشأة الغزل في بيئتي نجد والحجاز. وهو ما يعد تبنيا واضحا لمبادئ المنهج التاريخي الوضعي عند رواده الغربيين. وقد جاءت فصول كتابه معبرة عن هذا التوجه، إذ قسمه إلى خمس مقالات هي:

- زمان أبي العلاء ومكانه
- حياة أبي العلاء
- أدب أبي العلاء
- علم أبي العلاء
- فلسفة أبي العلاء

وإضافة إلى طه حسين، يعد محمد مندور رائدا آخر من رواد المنهج التاريخي والداعين إليه في النقد العربي. وقد تجلى ذلك من خلال ترجمته لمقالة لانسون: منهج البحث في الأدب، حيث عبر في تقديمه لها عن إعجابه بالمنهج العلمي لغوستاف لانسون وقدرته على تطوير النقد العربي وعلى تدريس الأدب أيضا.